

أنيس منصور



يوم كنا أحمارا لا ينبت عليها العشب!

وعندما غنى عبد الحليم حافظ : قارئة التنجين ..
اتصلت به ، الله يرحمه ، وقلت له : يا حليم .. إن هذا
أغنية أخرى تذكرني بالذي مضى !
وقال لي : مفقود يا ولدي مفقود !

رفجأة أصبح من الصعب أن أتعامل مع أي أحد ..
ووجدت أن الحل الوحيد هو ألا يراني أحد وألا أرى
أحدا . فالتسلخ يخافون . إنهم أكثر خوفا مني .. لأن هناك
عشرات الأنواع من التهم من الممكن أن تؤدي إلى فصل
أي إنسان من عمله .. والتأمر على تلب نظام الحكم ..
والشيوعية والتجسس .. والتأمر على جمال
عبد الناصر ..

وكلها كالأزمات العديدة .. تنتقل بمجرد اللبس
أو بمجرد التفكير فيها ..

ولذلك قررت أن أبعد حتى لا أنقل العدوى إلى أي
أحد .. وفي ذلك الوقت سمعت من المرحوم علي أمين هذه
العبارة : لا نتجن أحدا الآن ، وإلا فقدت كل الناس !
ولم أنس هذا العلي في هذا الوقت ما كان
يصبح أن أحاسب الناس على خرفهم مني ،
وحرصهم على الابتعاد عني .. فهم معذورون ثم
إنني لم أكن على خلاف مع وزير ، وأرجو عطف
رئيس الجمهورية .. وإفنا على خلاف مع رئيس
الدولة .. ولا أعرفه ولا أعرف كيف أصل إليه ..
فالأحجام حوله شديد .. ثم إن هناك مئات من
الناس قد أصابهم ما أصابني ولأسباب مختلفة .
وكما هي العادة : لا أحد يعرف لماذا خرج ولا متى
يعود !

وليس من العسل أن ألوم الناس . فلو كنت في مكان
كل الناس ، ما فعلت غير الذي فعلوا .
وبسرعة غريبة انسدت الأبواب من تلقاء نفسها ..
فأصدفاني في الإداعة ونفصرو أن يتعارفوا معي فقد
كنت أكتب القصة وبقروها المذيع .. قالوا لي : نأسف .
أي لا داعي لأن أكتب قصة ليقراها واحد آخر .. على
الرغم من أنه لا خوف مني .

طلبت أن أشغل دون أن يعرف أحد اسمي . ونفصرو ..
هنا تقدم لي الصديق عبد التواب يوسف مؤلف
فصص الأطفال .. وسأركته في برنامج صغير ، دون أن
يكون لي اسم ، وظللت كذلك شهورا ..
ولم يكن لي مكان أرى إليه كل ليلة .. سوى بيت

العام . لن ينتهي هذا العام إلا وأنت بإذن الله تعالى في
الشارع .. لا هذا المكتب ولا هذا البني .

أما هذا المكتب فقد كان في غرفة أساتذة قسم الفلسفة
بكلية الآداب .. وأما البني فهو مبنى أخبار اليوم .

وبالتفعل في يوم الكرسياس استدعان مدير مكتب
كمال رفعت الوزير الشيوعي وكان أيامها شرفاعلي
أخبار اليوم . وطلب لي على غير العادة فجاننا من الشاي .
وتناقشنا في موضوعات كثيرة . ولا بد أن الناس خارج
غرفة هذا المدير كانوا يحسدوني على هذا الشرف العظيم .
أي أن يستدعيني مدير مكتب الوزير وأن تطول إقامتي
في مكتبه .. وقد نهيت بعض الزملاء إلى أنني جلست عنده
أكثر من خمس دقائق .. ويقسم آخرون أني أمضيت أكثر
من سبع دقائق . وهذا رقم قياسي . فقد كان المألوف في
ذلك الوقت ألا يذهب أحد إلى مكتب المدير .. وإفنا يجيء
سكرتير المدير فيخبر رئيس السعاة الذي يطلب إلى أحد
السعاة استدعاء أي رئيس تحرير إلى مكتب السيد
السكرتير ليجلس ساعة وبعد ذلك يعتنله عن اشتغال
السيد المدير .. ولكنني جلست أكثر من سبع دقائق ..

وكانت هذه الدقائق كافية لأن يذهب السيد
السكرتير ومع السيد رئيس السعاة إلى مكبي
وينشأ ثم يبقوا بالسمع الأخر .. وعندما تم لها
ذلك . اتصل بالسيد المدير وأخبره بذلك في
اللحظة التي كنت قد فرغت فيها من شرب
اليسون لأسمع منه أن أخرج من أخبار اليوم إلى
الشارع إلى البيت ولا أعود .. فهذه هي
التعليقات ..

أما السبب فهو مقال كتبه بعنوان « حمار الشيخ
عبد السلام » بتاريخ سابق على ذلك بأيام .. وعلى مكتب
جمال عبد الناصر نفس المقال مع تأشيرة من علي صبري
نقول : هذا هو المقال وفي انتظار أوامرهم ..
ونفس المقال مع تأشيرة من المحاربات العامة تقول :
وفي انتظار أوامرهم ..

وكان جمال عبد الناصر في طريقه إلى الجزائر .. وأنا
في طريق إلى الشوارع .. وظللت أنتقل من شارع إلى
شارع ومن بيت إلى بيت سنة كاملة !
لا أعرف لماذا خرجت أو أخرجت .. وبدون أن يكون لي
أدنى حق في مرتبي .. ولا شيء في أنفي إلا أغنية عبد الحليم
حافظ : راح .. راح ..

بعض الأغاني تعجني . وأجد فيها تعبيراً
عن حالتي النفسية .. وأحياناً أذهب إلى
أبعد من ذلك فأفصرو أنها تتحدث
عني .. فإذا وصلت في أوهاشي إلى هذه
الدرجة فإبني أشعر بأن شاب صغير
مراهق . وإن كنت لا أذهب إلى أبعد من
ذلك .. فعندما غنى عبد الحليم حافظ :
راح . راح .. كنت في الشارع مفصولا
من عملي كرئيس لتحرير مجلة « الجيل »
ومدرس للفلسفة بكلية الآداب .. فعلا
كل شيء راح .. مع أن الذي راح من
عبد الحليم حافظ شيء آخر تماماً . والذي
راح من عبد الحليم كان تمثيلاً في تمثيل ..
أما الذي راح مني فحقيقة !

كيف راح كل شيء فجأة .. العمل راح . والأمان
راح . والبيت راح وليس أمامي إلا شوارع القاهرة
أزنادها فلا أرى شيئا . وإذا حاولت أن أرى ، فلنكني
أنفقت ورائي لعل أجد ذلك الخبر الذي يثني ورائي .. مع
أنني لا أملك أي شيء . ولا أستطيع أي شيء .. وكل الذي
يشغل ليلا ونهارا هو كيف أحيال على أمي فلا تعرف
أنني مفصول من عملي .. فنحن حياتنا أحداث أثيرة ..
وتكربات موجهة .. فقد فصل والدي من عمله كثيرا
ولأسباب تتعلق بطبيعة فله . وسفالة الذين كان يعمل
عندهم ومعهم من البائسرات ونظار الزراعة .. ولكن
تكربات الفصل أو ترك العمل .. وأن يصحو الإنسان
من الترم ليجد أنه قد ربطت العفش والملابس ووضعت
ساعة الحائط تحت أرجلنا لنسافر بها من بلد إلى بلد شيء
وذهب لا أستطيع أن أنساه .. والله يعلم أنني حاولت ذلك
كثيرا ..

كيف فصلت من عملي ..
كل شيء كان مفاجأة ..
بدلت بأن مددت يدي إلى قاريء الكف محمد جعفر .
مددت يدي . فرؤها وكأنها رأس حية رطاه لدغته ..
أو كأنه قرأ في كني خطاب استدعاء من المدعي
الاشتراكي .

قال لي محمد جعفر : اسمع يا ابني .. أنت مفصول هذا

المرات ذهبت إلى ناشر صديق ، فقلت له : عندي كتاب
عن « أقصر طريق إلى سعادتك »
فقال : سخيفة من السعادة ؟ ..

■ قلت : إنه كتاب جاد
قال : جاف ؟ ..

ألم ! . وكان أتبع ما في النهار : أشعة الشمس .. لأنها
تجعلني أرى الناس وهم يحاولون ألا يروني ..
وكثيرا ما يفعلون ذلك بغاية أو سخافة .. أو يكون
تفاديه لرؤيتي مهينا أكثر من الرؤية نفسها .
وبصورة أوتوماتيكية اعتذرت دور النشر عن عدم
قبول أي كتاب من تأليقي أو من ترجمتي . وفي إحدى

مصطفى أمين .. حيث تلقى بعل أمين وعبد الحليم حافظ
وكيال الطويل وكامل الشاوي . وفي هذا الجو ينسى
الإنسان ما الذي أصابه .. والذي أصاب مصطفى أمين
وعلى أمين .. بعد ذلك .. ولم يكن صعبا أن يمضي أكثر
الليل في ضحك وفي الفرجة على الذين يلعبون الكومي ..
ولكن المشكلة كلها كيف يمضي النهار .. فقد كان ثقيلًا

بسبب هذا المتكلم فصلى جمال عبد الناصر عامًا وحرمني من التأليف والخروج من مصر!

عمار الشاذلي عبد السلام

قال الشيخ : بل حارسها يأثمها الإنسان !
وكان الشيخ عبد السلام طرازًا غريبًا من رجال
الدين ..

كان يؤمن بالمساواة بين الناس جميعًا .
لا فرق بين سلطان وبين أي إنسان .. لا فرق بين
الماليك والتجار ..

وكان ينادي المملوك بقوله : يا .. أي شيء يا أي
حاجة ..

وكان ينادي العلماء بقوله : يا طالب .. يا إمام !
وعندما رجع الشيخ عز الدين بن عبد السلام قاضي
قضاة مصر . ألف الناس حوله بشكون من ظلم الماليك
ومن حماية السلطان لهم . وقرر الشيخ عبد السلام أن ينفذ
تعاليم الشريعة الإسلامية . ويطبق سيادة القانون على
الجميع ..

فالشريعة الإسلامية نصت على : أن المملوك لا يبيع ولا
البيع ولا التزاد ولا الزواج ولا الطلاق لأن المملوك بلا
إرادة ولا عقل .. وليس حراً .. أي أنه لا شيء ! .

ولكن يتحول المملوك إلى « شيء » .. يجب أن يباع في
مزاود علني ، والذي يشتري هذا المملوك له وحده الحق في
أن يطلق سراحه .. أي في أن ينعم عليه بنعمة الإنسان
الحرة فإذا صار حراً أصبحت له حقوق جميع المواطنين
الأحرار ..

ومعنى ذلك أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام يرى
أن الأشرار الماليك يجب أن يباعوا كالبهائم في السوق .
قبل أن تكون لهم هذه السلطة على المصريين الأحرار ..
وهذا رأى الشريعة ..

فالشيخ عبد السلام قد أتى وأعلن كلمة الشريعة ثم
جلس في بيته ..

وضجت القاهرة بالدهشة والخوف وانتزع السلطان .
وذهب الماليك إلى مولاهم السلطان بطليون إليه أن
يسمح هذا العار .

هذا هو .. اتركوني !

وركب حماره واتجه به إلى الشام ..

إنه في هذه اللحظة كان يشبه الفتى الذي الكسح في
الأزوايا الأمريكية « بورجي » عندما اتجه إلى نيويورك
على ظهر سفينة له عجالات وكانت تجره معزة ..
إن بورجي هذا اتجه إلى نيويورك يبحث عن محبوبته
التي خطفتها أحد البلطجية .. ومن وراءه أهل المدينة
يرثون لحاله ، لأنه لا يعرف أن أمامه خسة آلاف ميل
لكي يصل إلى محبوبته !

ومن وراء الشيخ عز الدين بن عبد السلام خرج
سكان القاهرة . فلا حياة لهم بعد هذا القاضي العادل الذي
يراجه ظلم السلطان والماليك .

وبومها قال أحد رجال الحاشية للسلطان : إذا خرج هذا
الرجل من مصر سقط عرشك ! .

وخرج السلطان ليرى ماذا فعل الشيخ عبد السلام .
فوجد عدداً كبيراً من الناس يشنون وراثة بكون .. كلهم
من الفقراء والأغنياء ..

وأرسل له السلطان رجال الحاشية ولكن الشيخ أصر
على السفر إلى الشام .

وكان الشيخ عبد السلام يتحدث إلى الناس وهو
راكب حماره .

■ وكان يقول : إني أخذت مسمى حماري هذا بالنيابة عن
بقية الحمير التي تركتها ورائي في مصر !

• • •

وأخيراً جاء السلطان وطلب من الشيخ أن يعود .
■ واعتدل الشيخ في جلسته فوق الحمار وقال :
ومطالي ؟

قال له السلطان : أحققتها لك .. فأنت الشريعة يا شيخ
عبد السلام ..

حدث

هذا في القاهرة من ٧٠٠ سنة .. علم
أهل القرية أن الشيخ عبد السلام قد
أهين . فقرر أن يترك القاهرة .

وأن الخلاف بينه وبين السلطان
على سيادة القانون .

القانون مع الشيخ .. والليف مع
السلطان .

القانون يحمي إيمان الشيخ
عبد السلام . والظلم مع السلطان
يحمي السيف .. ويحمي ألوف
الماليك الطغاة الظالمين ..

وخاف الناس وانتفروا على الشيخ . وراحوا يسكرون
بالشيخ عبد السلام .. ويشيرون إلى أولاده .. ويشيرون
إلى النساء .. يشيرون إلى صنته . ويشيرون إلى الأرض
التي هي نهاية كل شيء ..

يشيرون إلى السير .. وهو يشير إلى حماره الذي وقف
بالباب ينتظر التحرك إلى الشام ..

قالوا له : الصبر يا شيخ !

■ قال : لا صبر على ظلم !

قالوا له : الحلم يا شيخ !

■ قال : لا حاجة مع حائل !

قالوا له : السلطان يحيد

■ قال : بل يجب ضحك أمام القانون !

قالوا له : لا حاجة للمسلمين بدمك ؟

■ قال : الإسلام له رب يحمي !

قالوا له : السلطان يقتلك .

■ قال : لبس أروع من الموت في سبيل الله !

قالوا له : إرضاء السلطان سهل ..

■ قال : إرضاء السلطان إغصاب لله .

قالوا له : يمكن تقبيل يديه . وبعد ذلك كل شيء
يكون .

■ قال : بل كل شيء يكون إلا هذا !

قالوا له : ألا تقبل يدي ابنك ؟

■ قال : فعلت ذلك كثيراً ..

قالوا له : تصور أن يد السلطان هي يد ابنك تقبلها
من أجل المسلمين

■ قال : لو كان السلطان لا يدرى ما يفعل . فقبلت يده
أنت مرة .. ولو كان لا يدرى ، فأنا أدرى . وأعرف أن

■ قلت: جاد.. سهل العبارة وفيه شيء من المرح.
قال: سباني!

■ قلت: دراسات نفسية ونقص عاطفية تاريخية.
قال: هل يصدق الناس أنك لا تسخر من جمال

عبد الناصر؟
■ قلت: لا علاقة للكتاب بالسياسة.

قال: وكيف أقنع الناس بذلك.. ثم كيف يصدر لك كتاب الآن.. وأنت متأمر على الحاكم.

■ قلت: إني لم أتأمر.. وكل ما هناك أنني كتبت مقالاً اعتبر الحاكم نوعاً من التعريض والسخرية واتهمني هذا بروتوق أمالك أعرض عليك كتاباً من تأليقي ومن تجاربي..
قال: أنت تصرف أن جمال عبد الناصر لا يرحم.. وأنت لا يرضيك أن أنسى معك في نفس الطريق وأنسول.. أنا صاحب عيال.. وأنت ربه الحمد.. لا عندك أولاد ولا عندك زوجة.. خفيف.. أذهب الله بجنن عليك.. أنت من سكة وأنا من سكة..

ونفكرت في الهجرة من مصر نهائياً..

وذبحت إلى المرحوم علي أمين.. وسعني بعنف أن أذكر في شيء من ذلك.. وأنه يجب أن أصبر.. وأن جمال عبد الناصر لن يعيش إلى الأبد.. وأن هذا الذي حدث لي هو شرف عظيم وأن هذا أقصى ما يبلغه أي كاتب..

وشجعتني بعض الأصدقاء في البلاد العربية على السفر إلى غير رجعة.. وكانت أمي مريضة ثم إني بدأت اعتاد على هذا الذي أصعله.. أرى الذي لا أصعله.. وأحس أنني نزيل في أوسع سجن في الدنيا: السوارع.. والطاعم وبيت مصطفى أمين.. والنهار الثقيل والليل القصير.. والتوم المتقطع وأوجاع المصران.. وبكاء أمي ومتجبات قها.. وأغنية عبد الحليم راج.. هاج.. تاه.. داخ..

وعدت إلى عمل.. أكثر لربما وأكثر خوفاً.. ولكن أكثر شجاعة.. أو أكثر بلاهة.. فوالذي حدث لي.. لا شيء غير الحرف التي اعتدت عليه.. وغير الضياع التي ألفتها.. لقد كنت تلقى قبل ذلك لأسباب عقلية.. فأصبحت تلقى لأسباب عقلية وعملية.. وفي نفس الوقت أفرحت أقصى ما يمكن أن يصيبني إذا كتبت كلاماً ومزياً له ألف معنى.. ولم يكن نقداً مباشراً لا يحاسب عليه القانون..

ومن شدة الخوف بدأت أتعمد في الأخطاء.. أترجم الأخطاء وأضعف فيها.. وأصبحت مشكك في كتابي ليس التي أفكر في كتابته.. وإني الذي لا يصح أن أكتب.. أو لا يصح أن أفكر في كتابته أو عدم كتابته.. لقد تولد لي داخلي رقيب وصحفي ورقيب على الصفات الأدبية والنثية ورجان ورفناح.. فلا أكاد أمسك القلم حتى يفت هذا الصف من الجلاذين والرقباء أمامي.. واحد يعطى القلم والثاني يمسك الحبر والثالث يمسك الورقة والرابع يفتح الثور والخامس يوقفني لعل أكتب ويضفي في فري لعل أصحح.. وفي كل مرة يجفني جنة حادة على الرق.. فيطهء الثور ويهتف الحبر ويسحب القلم ويتلاشون جميعاً من أمامي.. أو أتلاشي أمامهم جميعاً..

وفي لحظة الثلاثي هذا يصيح الثور والأمن والأمان والإيمان تباً عزيزاً!



ومن الأشياء التي حيرتني صغيراً هذا الجور الكئيب في بيتنا.. لا يوجد ضحك ولا فرح وكنت أسمع أن والدي رحمه الله كان مرحاً ولطيفاً.. كان شاعراً ينظم الشعر الرقيق.. ويحفظه ويروي.. ويطلب إليه الناس ذلك وكان يدعو عند صلاة الفجر إلى أن أجلس معه.. لأشرب الشاي بالنعناع وأصل وراءه دون أن أدري ما الذي أفعله.. ولكن والذي كان يجني ولا يجب أن يكون وحده.. وقد حفظت الهزيمة التبرية والبردة للبوسيدى وأنا طفل صغير جداً قبل أن أدخل كتاب القرية.. وفي نفس الوقت لا أقهر بما يقوله أبي شيئاً.. وحفظت القرآن الكريم في سنين.. وأنا لا أقهر كلمة واحدة منه.. ولكن أبي ليس كذلك في البيت.. لماذا؟ هل لأن أمي شديدة الحساسية.. هل لأن أمي تد عارفت أسرتها كلها فتزوجت أبي الذي يكرها بعشرين عاماً.. هل لأنه كان من الأفضل لما أتى بين أهلها وتزوج أحد أقاربها من أصحاب الأراضي بدلاً من أن تزوج واحداً من الأئندبة

ثانية ستصبح مسرحية لتوفيق الحكيم بعنوان «السلطان الحائر» بعد سبعة قرون..

ولكن الشيخ عبد السلام كان بسيطاً وكان جاداً جانا. وحاول أحد الأمراء أن يقتل الشيخ عبد السلام.. ثم ذهب إليه السلطان بنفسه.. وفي يده سيف.. وأمام عدد كبير من الخدم.. دن باب الشيخ برجله.. ثم بسيفه.. وكان ابن الشيخ هو الذي نفع الباب. قال له السلطان: قل لوالدك أن يعمل عن رأيه وإلا قتلت!

وظهر الشيخ عبد السلام.. ونظر الشيخ إلى السلطان كما تنظر الأفعى إلى العصفورة الصغيرة تستقط العصفورة من شدة الفزع.. وسقط السيف من يد السلطان.. وسقط السلطان أيضاً.. ولكن الشيخ عبد السلام أصر على بيع الممالك ولم يجد الأمراء مقراً من الشيخ أو من الشريعة.. وأعلن الشيخ عبد السلام في القاهرة أن: الأمراء للبيع..

ولم يقبل البيع الرمزي.. أي بمجرد إعانة هؤلاء الممالك وعرضهم كالمائسة أمام المواطنين.. وإنما البيع معناه البيع.. وبأغلى الأسعار لأن هذه الأموال يجب أن تدخل خزنة المسلمين.. وانفق كل مملوك مع أحد أصدقائه على أن يشتره.. وكان الشيخ عبد السلام يطلب ثمناً غالياً في كل مملوك..

وبنسى الروح الحادة التي لا تفهم المزمار في الحق.. باع الشيخ عبد السلام حماره في نفس السرق.. فلا فرق بين الحمار والأمير.. «كلها» أو «كلهم» حيوانات مادامت بلا عقل ولا عدل ولا حربة..
● باع حماره لأنه قرر البقاء في مصر.. بعد أن تحسرت من العبيد الذين يحكمون الأحرار! وطوبى صفة الشيخ عز الدين بن عبد السلام.. ولكن الشيخ نفسه يظل برأسه وبروحه في ساعات الأزمات في التاريخ.. ولا أدعى أنني أراه الآن وإن كنت أفتي أن أراه.. وإذا ظهر فسوف يجد له ألوف التامعين.. ولكن من المؤكد أن حماره سوف يجد أكثر من ثلاثين مليوناً..
■ مدد يا شيخ عبد السلام مدداً!

ونار السلطان.. عندما علم أن القاهرة كلها تنتظر هذا اليوم العظيم.. وأن الشيخ عبد السلام متمسك برأيه.. وإلا فالخمار بالباب والطريق مفتوح إلى الشام! وأصبح حمار الشيخ عبد السلام أشهر حمار في القاهرة وأحب الحيوانات إلى الأمراء.. فلا يكاد الواحد منهم يمر بين الشيخ عبد السلام حتى ينزل من فوق حصانه ويتفرج على الحمار وفي بعض الأحيان يتقلبه وكان الشيخ عبد السلام يسمح لهذه الأفواه البيضاء التي قبلت الحمار أن تقبل يده.. ورجلته في ذلك:
■ أن حماري هذا أفضل من الممالك.. ثم إن قيلات الممالك لا تنفض الوضوء! وكان يبولها جاداً.. فالشيخ عبد السلام لا يعرف الزواج.

وعندما طالب ببيع الأمراء.. لم يكن يدرك هذه التكتة التاريخية.. ولم يكن يتصور أن هذا شيء جديد في التاريخ.. لم يكن يدري أن هذه العبارة التي نالها في



وعادات مصر إلى حجمها الطبيعي

إبراهيم صالح

في ١٥ مايو عام ١٩٧١ وضعت مصر - بيد السادات - حجر الأساس لصرح ضخيم وعظيم في البناء الداخلي والخارجي، بدءا من عودة القيم الروحية والأخلاقية والقانونية إلى المجتمع المصري.. إلى تقليص الإرادة المصرية من أي تدخل أجنبي، نصر أكتوبر الرائع جمع شمل العرب في أول وحدة حقيقية في تاريخهم الحديث، خلق أول إحساس في تاريخ إسرائيل بانتهاء عصر التوسع في الأرض العربية، أول اعتراف في تاريخ أمريكا - فضلا عن اعتراف العالم كله - بحق الفلسطينيين باختصاص مصر إلى حجمها الطبيعي والحضاري في المجتمع الدولي.

حتى ندرك أبعاد ماتحقق منذ ذلك التاريخ، أوجس أن نذكر معا أن مصر كانت - لسنوات طويلة - مهلهلة العلاقات مع ثلاثة أرباع العالم.

استراتيجية ثابتة

مع التخلص من مراكز القوى نشطت الحركة في مجال العلاقات الدولية لمصر. دول تقرب ودول تشهد، وأدركت الدبلوماسية المصرية أن عليها أن تضع استراتيجية مصرية ثابتة تتحكم بها في «الشراع» ولا تترك الهواء يبعث بقاربها في المحيط الدولي. وكانت «مصر» هي هدف كل عناصر الاستراتيجية المصرية التي بدأت تتبلور ملامحها:

١- ليس لمصر أطباع في أحد. وليس

حتى الآن. فلا يهني أن أملاك.. عاشت أمي وماتت دون أن تحصل عليها.. ولا بد أن تنفق على هذه القضية ضد إخوتها حتى الموت.. ومات أكثر من محام.. ومات القاضي ومات المتأجرون.. وماتت له أخوات.. وأمى مصر.. على أن تكسب هذه القضية ويوم ماتت أمى حكمت لها المحكمة بتسليمها من الأرض. وفي الصفحة التي نشر فيها خبر الوفاة نشر قرار الرئيس السادات بأن أكون رئيسا لتحرير آخر ساعة وعضوا لمجلس إدارة أخبار اليوم. وثلاث برقيات التعزية والتهنئة معا.. التهنئة بمنصى الجديد، والتهنئة بقرار المحكمة وكانت نكتة لم يضحك لها أحد!



■ ■ تغيرت الدنيا.. ولم يعد الخوف هو الهراء الذي ينتفضه كل الناس.. ولم يعد الأرق هو الطعام الذي يأكله كل صاحب قلم..

إن أفلاما كثيرة تهاجم مصر وحاكم مصر، ويعود أصحابها إلى بيوتهم يمجدون كل شيء كما تركوه في الصباح.. البيت والزوجة والأولاد، والمزب في نهاية الشهر.. ولا داعي لأن يثقل الواحد منهم وراه ليجد أن مخبرا ينابهه.. يعد عليه خطواته ونحياته وسلاماته..

أذكر أنني كنت على موعد.. وبعد أن تركت سيارتي في المراج.. عدت لأخذها من جديد.. ولكني أكره قيادة السيارات لأنني أسرع كثيرا وأضطرم بالأشياء، وبأعمدة النور وبالناس.. فقررت أن أستوقف أحد التاكسيات. ووقف التاكسي.. ومددت يدي أفتح الباب.. ودخلت لأضطرم بواحد ركب من الناحية الأخرى.. وجلس.. واندعشت رسالته فوجدته يصرخ في وجهي: يا سعادة اليه قطعت نفسي.. أنا صاحب عيال يا بيه!

إنه الخبير قد تعب من متابعي! لقد سمعت الرئيس السادات يقول: أعجبتني على بن أبي طالب عندما قال: لو كان الفقر رجلا لقتله. أما أنا فأقول: لو كان الخوف رجلا لقتله!

إنه أضع من الجوع.. إن الإنسان يجوع باختياره فيصوم..

ولكن الخوف.. هذا التسلل العقلي.. هذا الزلزال الوجداني.. هذا السم يسري في الأبدى فلا تكسب، وفي العقل فلا يفكر، وفي القلب فلا يدق إلا مسامير في نفس الحياة.. أن الخوف ليس رجلا إنه ملايين الرجال.. فالحائن يتوهم أن الذين يطاردونه بالألوف، والذين يحاكمونه بمئات الألوف، والذين يبريدون القضاء عليه بالملايين.. فلو كان الخوف رجلا واحدا لقاتله حتى قتله.. ولكن الخوف، بعدد خلايانا، بعدد كريات الدم البيضاء والخمراء، ملايين من الحشرات اللاسعة السامة!

■ ■ فالخوف هو النياز يأكل الليل.. هو الأرق يلتهم النوم.. هو الشك يمتص الإيمان.. هو الكريات البيضاء تمحو الكريات الحمراء.. هو الموت يزهق على الحياة وأنى أمل في النجاة!

أنيس منصور

ينتقل بها وبأولادها كل يوم في بلد.. لقد كانت أسرنا الصغيرة كائنات الإغريق الذي يقول: إن الحجر المتحرك لا يبت عليه العشب!

فتحن نتحرك كل يوم في بلد.. لماذا؟ لأن أبي يغير عمله من شهر إلى شهر.. لماذا؟ لأنه عمل حرس.. أبي لأنه ليس موطنا في الحكومة.. فلا شيء يرفضه إلا نزوات السيد.. أبي صاحب الإقطاع.. فقد عمل أبي بأمورا لتفانين عدل باشا يكن وغيره.. وكان هذا العمل حرا.. أبي لا يخضع للوائح أو قوانين.. وكان أبي لا يطيق أن يقيده عمل.. أو يجبره أحد بكلمة.. وكان أبي لا يتصور أنه في الإمكان أن يدرس الإنسان على كرامته من أجل شيء.. ولم يكن أبي مرنا.. ولا سياسيا.. وإنما هو رجل فنان ينظم القصيدة في أي إنسان ويدفع الثمن.. ويكون الثمن أن يلم العنق ويلم أطفاله في سيارة من بلد إلى بلد..

هذا التثقل.. قد أورتنا القلق..

هذا القلق قد أورتنا الخوف..

هذا الخوف قد أورتنا اليأس..

هذا اليأس قد جعل البيت كنيسا.. والتهار ليلا.. والليل خروفا.. والطعام مرا.. وجعل أبي صغيرا عاجزا.. وجعلنا عبئا ثقيلا على أمنا..

يكن أننا لسنا ككل خلق الله: بيتا مستقرا.. وعلاقات طويلة.. وصداقات متينة.. إننا شجرة لا نكاد نزرعها حتى نغلقها.. ولا نكاد نغلقها حتى نزرعها.. وتذبل الشجرة حتى الموت.. وكذلك كانت كل علاقاتنا وأوراقنا صفراء على شجرة ذابلة..

■ ■ هذه المعاني التي احتشدت كلها في رأسي وفي عيني وجعلتني عاجزا عن أن أقول لأمي: إني مفصول من عملي.. فلما كما كان يحدث لأبي.. وإني قد ورثت عن أبي أشياء كثيرة من بينها أن أجحد نفسي كل يوم على باب..

لقد ورثت عن أبي الزهد في هذه الدنيا.. فلا شيء، يفرغني ولا شيء، يخيفني.. ولا يهمني كثيرا أو قليلا أن أكون مالكا لبيت أو أرض أو أي شيء.. لقد عاش أبي لا يملك، ومات لا يملك..

ولكنه لم يكن في استطاعته أن يملك.. فالخجر الذي يتحرك لا يملك عشا واحدا.. ولكن يكون عشب.. لا بد أن يستقر الخجر على الأرض.. وأن يله الماء.. وأن تسقط عليه بعض البذور.. وتنب البذور.. وتورق وتكبر.. كل ذلك إذا استقر الخجر..

ولكن أحجارنا لم تستقر..

وفتحت عيني وأغضضتها على مرض أبي وبكاء أمي.. وراء الباب تنتظر عودة أبي فلا يعود.. نيكى مرة أخرى لأنها لا تستطيع أن تعود إلى بيت أبيها.. فقد تحدث الجميع.. وخرجت فلا تعود!

ولما عدت إلى عملي في أخبار اليوم رئيسا لتحرير الجبل، قررت أن أبحث عن طريقة لكي أترك مصر.. وراجعتني مشكلة.. أن أمي على خلاف مع أمليها.. والخلاف أنها ورثت ثلاثة أفدنة أوسنة.. والله لا أعرف

وعقدت السوق الأوروبية المشتركة اتفاقاً بمعاملة تفضيلية مع مصر، تخفض بمقتضاها الرسوم الجمركية على بعض الصادرات المصرية بنسبة ٨٠٪ إلى جانب معونة تزيد على ٢٠٠ مليون دولار.

وتقطع الحوار العربي الأوربي شوطاً كبيراً في محاولة التقريب بين وجهات نظر المجموعتين.

والقوى الدولية الأخرى

● وزادت القار الناصجة على سحر السياسة المصرية الخارجية.

● علاقات ممتازة مع الصين الشعبية.. الفترة السياسية الحافلة.

● تعاون اقتصادي وتكنولوجيا على أعلى مستوى وأوسع نطاق مع اليابان.. القوة الاقتصادية الضخمة.

● مركز قيادي في حركة عدم الانحياز واكتسابها بالكامل مع الحق العربي حتى أنها شكلت لجنة خاصة لمشكلة الشرق الأوسط.

● ثقة مطلقة من مجموعة الدول النامية حتى أنها طلبت أن تتولى مصر تمثيلها في مجموعات الاتصال التي شكلها مؤتمر الحوار مع الدول المتقدمة.

● جهد متواصل في القارة الأفريقية استطاع أن يكون ركيزة لنجاح أول مؤتمر قارة إفريقية في التاريخ. ومن قبله نجح في أن يقطع علاقات الدول الأفريقية جميعاً باستثناء ثلاث دول عصرية.. مع إسرائيل قبل حرب أكتوبر. وكسب أصواتها جميعاً في الأمم المتحدة.

● ومازال الجهد المصري في أفريقيا يبذل أقصى ما في طاقته للحفاظ على وحدة القارة الأفريقية واستقلالها ضد كل تدخل أجنبي. اهتمام خاص نجح في تدعيم علاقات مصر مع دول أمريكا اللاتينية وإتباعها بعدالة الحق العربي.

الفترة الكبرى

وبعد ست سنوات مازالت مصر على نفس الطريق في سياستها الخارجية. فهي.. كما قلنا.. استراتيجية بعيدة المدى.. ثابتة وواضحة، وليست مرحلة تكتيكية. والقرار الناصجة على شجرة السياسة الخارجية المصرية تتزايد يوماً بعد يوم.. تفتطمحها مصر بشقة وبإحساس النجاح بعد الجهد.

● ولكننا مازالتنا في انتظار نضج الفترة الكبرى.. مؤتمر جيف.. جت المحل الشامل.. والسلام الدائم والعدل.. في الشرق الأوسط.



● الرئيس هوسني مبارك



● الملك فيصل



● شاه إيران



● الرئيس بورقيبة

السلاح، أو اتخذنا قرار الحرب بإرادتنا المصرية الحرة المستقلة، فليس ذلك استغناء منا عن الصداقة مع السوفيت. فصر كانت، ومازالت، وستظل دائماً.. حريصة على علاقاتها الطيبة مع الاتحاد السوفيتي.. ولكن على أساس صداقة متوازنة.. متساوية الحقوق والواجبات. من هذا المنطلق كان لقاء اسماعيل فهمي نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية، مع أندريه جروميكو في صوفيا في نوفمبر الماضي.

ومن هذا المنطلق أعلن الرئيس السادات في ديسمبر الماضي أنه على استعداد أن يتم لقاء ثان بين فهمي وجروميكو. وأنه شخصياً على استعداد أن يجلس مع بريجنيف لإيهاء كل شيء.

● ومازالتنا نتظر.

تعاون مع أوروبا

وكان التجارب الأوربي مع الانفتاح المصري سريعاً وإيجابياً.. سياسياً واقتصادياً. فبعد شهر واحد من حرب أكتوبر أصدرت المجموعة الأوروبية بياناً تدين فيه احتلال الأرض بالفترة وتدعو إلى تطبيق قرارات الأمم المتحدة وانسحاب إسرائيل من الأرض المحتلة. وزادت على ذلك في يناير الماضي، إجماعها على حق الفلسطينيين في إقامة وطن قومي لهم وإن كان هذا البيان لم يذع رسمياً بعد.

متلاحقة في أروع وحدة فعلية في تاريخ العرب الحديث دون مرائين مكتوبة.

● وطول الطريق لم تحدد مصر عن الهدف العربي الموحد.. تحرير كل شبر من الأرض العربية. وعدود الحق الفلسطيني التمدد في الوطن والدول مع عدم التدخل في شؤونهم. فهم وحدهم أصحاب الحق في التحدث عن أنفسهم.

أمريكا والوطن الفلسطيني

العلامة الأخرى على الطريق هي تطور الموقف الأمريكي تجاه قضية الشرق الأوسط والذي ترتب بصفة أساسية على التحرك الدبلوماسي المصري. ويمكن أن يصرح رئيس أمريكي لأول مرة منذ قيام إسرائيل. بحق الفلسطينيين في وطن قومي. ويمكن أن تصوت أمريكا في مجلس الأمن ضد إسرائيل وتصرفاتها التصفية في الأرض المحتلة.. لأول مرة يستقبل رئيس أمريكي مثلاً لشعب فلسطين في حفل رسمي. ولأول مرة تعطي أمريكا مشكلة الشرق الأوسط أولوية مطلقة.

نحن نريد الصداقة

أما التطور الذي طرأ على العلاقات المصرية السوفيتية فوفقاً له واضح. إذا كنا قد استغفينا عن الحيرة السوفيتية في القوات المسلحة المصرية، أو نوعاً من مصادره

مسوحاً لأحد أن تكون له أطباع في مصر.

٢- سياستنا الخارجية تنقسم على قسمين والباقي، الأخلاقية والدولية المتعارف عليها.. بثبات ووضوح. نعرف ماذا نريد من العالم حولنا. وبحيث يستطيع العالم أن يعرف مقدماً ما يستطيع أن يحصل عليه منا.

٣- قلب مفتوح للعالم كله.. نتكافأ فيه الفرص أمام الجميع، جوهرها المصالح المتبادلة على أساس الصداقة المتساوية، ومظهرها الددية لا التبعية.

٤- الحساب العلمي الدقيق لكل خطوة نخطوها. واضعين في اعتبارنا آثار كل حركة في المدى البعيد. بنفس قدر اهتمامنا بالتأثير القريبة.

● وبدأ تطبيق هذه السياسة بقوة وحسم في المجال الدولي.

● وانفتح العالم كله علينا ما دام قد وجد الفرصة سانحة لإقامة علاقات صحية سليمة معنا.

● ولقيت هذه السياسة تأييداً دولياً متزايداً وصل إلى ما يشبه الإجماع.

ولأول مرة في علاقاتنا الدولية بصفة عامة وفي مشكلة الشرق الأوسط بصفة خاصة، انتقل زمام المبادرة إلى أيدينا. ووجدت إسرائيل نفسها في مركز الدفاع الدبلوماسي لأول مرة في تاريخها. أنفاسها تلهث وهي عاجزة عن ملاحقة التحرك الدبلوماسي المصري في أنحاء العالم. حتى أنه عندما جاءت حرب أكتوبر ١٩٧٣، لم نجد في الأمم المتحدة «الأصوات» التي تعودت أن تصرخ بها في وجهنا.

وبدأت مصر نجس غار الاستراتيجية الجديدة.

وكان النصر.. والوحدة

توقفت مصر عن إثارة أي خلاف مع أي دولة عربية شقيقة. ولذلك. عندما أصدر السادات قراره التاريخي بحرب أكتوبر ١٩٧٣، لم تكن هناك وراء ظهره أي مشكلة.. بل كان العكس صحيحاً. حلت سوريا السلاح إلى جانيه. سارعت دول الخليج لشهر سلاح البترول في وجه العالم. فبت دول أخرى ترسل عتاداً وقوات إلى الميدان. طار الرئيس هوسني بومدين يشترى لنا المدافع. اقترض الشيخ زايد آل نهيان ١٠٠ مليون دولار لتمويل الممرقة.

واشتر التأييد العربي يتزايد رغم مرور بعض السحب في سمانه ولكنها انفتحت جميعاً. وعندما احتاجت مصر ودول المواجهة إلى دعم اقتصادي مدت الشعوب المصرية الفادرة يدها. وعندما اتخذ الرئيس السادات قراره بتنويع مصادر السلاح ودعم القدرة على إنتاجه نجايوت الدول القادرة. وعندما راجه الاقتصاد المصري أزمة بنابر بأحداثها المتقلبة قدمت دول الخليج ١٥٠٠ مليون دولار لموازنة العجز. وكلها سلة